تمثلات الخطاب السردي القديم عند سعيد يقطين، "الكلام و الخبر مقدمة للسرد العربي نموذجا"

د .فتيحة بلحاجي
جامعة برج بوعريريج

لم يحظ السرد العربي القديم بالعناية الكافية من قبل الباحثين العرب المعاصرين، رغم الاتفاق على وجوده وتوفر نصوصه المندرجه ضمن أنواع وأجناس سردية مختلفة ، فكان لا بد من الالتفات إليه لأنه جزء هام من تراثنا ، ظل مغيبا تحت اسم النثر العربي، و الواضح أن ظهور مصطلح السرد العربي جعل الانتباه إليه يغني المكتبة العربية بدراسات كثيرة ومتنوعة كما حلّق بالسرد العربي القديم خلال السنوات الأخيرة عاليا و مكنه من احتلال صدارة الاهتمام .

ومن الدراسات الهامة التي وقفت وقفة جادة عند قضية الخطاب السردي القديم ، دراسة سعيد يقطين الموسومة بـــ "الكلام والخبر" التي جاءت امتدادا لكتابه " الرواية والتراث السردي " ليقدم محاولة للإجابة عن الأسئلة الكبرى التي طرحها يقطين من خلاله ، وهي تتصل مجتمعة بكبريات القضايا التي لم نفكر فيها بصورة ملائمة ، حيث اكتفى باتخاذ الإجابات التي تم اقتراضها منذ بدايات القرن التاسع عشر من الأدبيات الغربية المختلفة وفي إطار ذلك تبيّن له أن السرد العربي (الخبر) يحتل موقعاً مهما في "الكلام" العربي. بل وسمحت له إعادة النظر في الأجناس العربية بالذهاب إلى أن السرد يحتل مكانة هامة. [1]

كما يمكن اعتبارها تكملة للدراسة التي كان يقطين قد أنجزها عن كتاب 'الإمتاع والمؤانسة' لأبي حيان التوحيدي (المجلس، الكلام، الخطاب، بصدد ليالي أبي حيان التوحيدي، ضمن السرد العربي،المفاهيم و التجليات).

انطلق سعيد يقطين في مساره النقدي من الرواية الجديدة إلى السرد العربي القديم وذلك لتحقيق غايتين: الأولى: تطوير الدراسة السردية بالاشتغال على نصوص قديمة تختلف من حيث بنياتها وتركيبتها عن النصوص الروائية الجديدة.

والثانية تكمن في إقامة الجسور بين السرد العربي القديم و السرد الحديث لما بينهما من وشائج تتمثل من جهة في تفاعل الروائي العربي مع النصوص السردية القديمة، ومن جهة أخرى للبحث في تطور السرد العربي باعتباره جزءا من متخيل الانسان العربي ، وبذلك تم الانتباه إلى أن السرد ديوان آخر عند العرب لا يقل أهمية عن الشعر العربي الذي ظل الديوان السائد لقرون عديدة.

فالنصوص السردية التي تشكل مادة النقد في مشروع سعيد يقطين، تسمح بملاحظة عنايته الخاصة بنصوص كانت خارج مدار الاهتمام، كما هو الحال مثلاً مع سيرة سيف بن ذي يزن أو الحكاية العجيبة، وباقي النصوص التراثية المعروفة..

و عن انصرافه إلى النص السردي القديم يبيّن يقطين في حديثه إلى "العربي الجديد" أن "السرد العربي غني ومتنوع. لكن الدرس الأدبي ظل مشدوداً إلى الشعر. وحتى عندما يتم تناول بعض النصوص القصصية كان ينظر إليها في نطاق النثر العربي. لذلك، ومن خلال بحثي في الرواية، ظهر لي أن تخصيص مفهوم جامع لمختلف التجليات القصصية والحكائية العربية تحت اسم "السرد" يمكن أن يعطي رؤية جديدة لجنس عربي أصيل، ساهم فيه العرب بقسط وافر. ويكفي ذكر الليالي العربية للدلالة على ذلك"[2].

انصراف يقطين إلى السيرة الشعبية العربية يحقق غايتين، وفقاً لما يقول، وهما "لفت الانتباه إلى المهمل من النصوص، ومحاولة كشف سحرها، إضافة إلى إعادة النظر في الأجناس الأدبية التي ظلّت عندنا مختزلة في التصوّر الأرسطي.[3]

*قراءة في الكتاب :

صدر كتاب الكلام و الخبر : مقدمة للسرد العربي " سنة 1997 عن المركز الثقافي العربي ، بيروت / الدار البيضاء

يستهل سعيد يقطين مقدمة كتابه بقوله:

"عندما كنت أشتغل بالرواية ، من خلال تحليل الخطاب ، ظهر لي ،أن الرواية الجديدة ، وهي تخرق قواعد بناء القصة ، أو تدخل تقنيات عديدة في تشكيلها ، لا يمكن أن تكون مجال الاستثمار الطبيعي للمعطيات الأساسية التي تساهم في تصور نظري عام للعمل السردي . كنت وقتها منشغلا بالخطاب والنص ، وأؤجل النظر أو البحث في القصة أو المادة الحكائية . ولما كان تشكيل التصور المتكامل لتحليل السرد مقترنا بالبحث في مختلف ما يتكون منه ، ارتأيت الانطلاق من المتن السردي العربي القديم . إنه من الغنى ،والتنوع ، و التعدد ، بالقدر الذي يتيح لنا إمكانية معالجة الموضوع المؤجل بالصورة الملائمة" [4]

لقد جاءت دراسة يقطين رائدة في بابها، فخطت بالتصورات النقدية العربية خطوات متقدمة في القضايا المتصلة بالسرد العربي القديم، فقد كشف في هذه الدراسة عن وعي متطور بالإشكالات العميقة المطروحة على بساط البحث في أنواع الكلام العربي.

فالخطاب السردي أكثر رحابة لتجميع أصناف السرد من باقي الأجناس الأدبية التي سادت عبر عصور متعاقبة حيث لا يمكنه أن يتداخل مع أي جنس آخر؛ لأن" مفهوم الجمع غامض جوهريًا وهذا يفسر عدم الاستقرار الدلالي لأسماء الأجناس المفترضة تجميعًا شكليًا وموضوعاتيًا بسيطًا، حكاية، قصة، رواية،...الخ"[5]، وهذا ما أدى إلى توسيع الاسم المتمثل في الخطاب السري عقب تشكيل تاريخي تطوري خضع لإعادة تصنيف تلك النصوص.

لقد وجه يقطين عنايته بالسيرة الشعبية و انكب عليها لعدة أسباب و إعتبارات نجملها فيم يلي :

"أ- السيرة الشعبية عمل حكائي مكتمل و منته ، وقدم لنا العرب من خلاله العديد من النصوص .

ب- هذا العمل الحكائي يمتاز بالطول الذي يتيح له إمكانية استيعاب العديد من الأجناس والأنواع والأنماط .

د-إن له خصوصية يتميز بها عن غيره من الأنواع السردية العربية ، سواء من حيث تشكله أو عوالمه الواقعية أو التخييلية التي يزخر بها .

ه-هناك العديد من النصوص العربية الحديثة التي تتفاعل معه ، بمختلف أشكال وأنواع التفاعل النصي ."[6]

بعد هذه الأسباب و الدوافع وراء اشتغاله على نص بالسيرة الشعبية يوضح يقطين أهدافه و مقاصده بهذا الاشتغال و التي يجملها في مما يلي :

"1 . تعميق التصور السردي الذي أسعى إلى بلورته وأنا أبحث في السرد العربي الحديث ، وتطوير إجراءات البحث ، وتدقيق أدوات الاشتغال ، بالانتقال إلى الاهتمام بالسرد العربي القديم .

2 . إقامة علاقة بالنص التراثي العربي في مختلف تجلياته ومستوياته لأن السيرة الشعبية منفتحة على التاريخ والجغرافية ، ومختلف المعارف التي راكم فيها العرب تصورات شتى ، وتركوا لنا بصددها أدبيات متعددة ".[7]

انطلق يقطين في دراسته لهذا النوع الأدبي من ضبط لجملة من المفاهيم التي أطرت تصوراته أثناء البحث ، فركز على مفهوم "الكلام"، الذي انطلق في تعريفه من أهم المصادر العربية القديمة ، فتكمن يقطين من بناء تصوره لمسألة الأجناس

الأدبية على أطروحة أساس شكلت عصب كتابه مؤداها بناء نظرية عامة للكلام لا سيما في تجلياته العربية ، انطلاقا من المزاوجة بين السرد العربي القديم واجتهادات الغرب.

ثمن يقطين السيرة الشعبية و مجال الاشتغال بها، فوصفها قائلا:

ا. "أن السيرة الشعبية تنتمي إلى قطاع واسع من الإنتاج الثقافي العربي الذي ظل مهمشا ، ومغيبا من دائرة الاهتمام والبحث ، ولاريب في أن البحث في هذا النوع من النصوص المهمشة ، يفتح أمامنا آفاقا جديدة للتفكير في الذات العربية ، مختلف بنياتها الذهنية والفكرية .

ب . أن السيرة الشعبية ، كإنتاج ، كانت وليدة تفاعل يومي وتاريخي للمجتمع العربي مع العالم الذي كان يعيش فيه . ومن ثمة جاءت محملة بمختلف أنواع الأحاسيس والانفعالات والرؤيات التي تمثل مواقف العربي من العصر ، والتاريخ ، والآخر . وبذلك فهي كما تنفتح على مختلف روافد التراث العربي ـــ الإسلامي الذي كان يشكل قاعدة لها ، كانت تنفتح على موروثات الشعوب الأخرى وثقافاتها ، وخاصة تلك التي كانت على صلة وطيدة بها (الروم / الغرب) "[8].

تتجلى الفرضيات التي حاول يقطين الانطلاق منها لدراسة السرد العربي من خلال السيرة الشعبية في:

"1*السيرة الشعبية نوع سردي له خصوصيته وتميزه عن باقي الأنواع السردية العربية . وفي هذا النطاق حاولت نقض التصورات النوعية السائدة لدى الباحثين العرب بشأنها ، والمتمثلة في كونهم يعتبرونها : ملحمة ، قصة بطولية ، رواية ،،، أو ماشاكل هذا من التسميات.

2*السيرة الشعبية نص ثقافي : ويتجلى ذلك في كونها ، وهي تتأسس نوعا سرديا له خصوصيته ن تنفتح على مختلف مكونات الواقع العربي ، وثقافته ، وتقدم لنا نصا يتفاعل مع مختلف ما أنتج الإنسان العربي في تاريخه."[9]

اعتمادا على هاته الفرضيات حاول يقطين تجسيد مختلف البنيات الائتلافية و الاختلافية التي تحيلنا إلى العام و المشترك ، والخاص والمختلف داخل النسق العام الذي يحكم مختلف هذه الإنتاجات وتجلياتها. و قسم هذا البحث إلى تأطير وأربعة فصول :

1*التأطير: التصور النظري لدراسة السرد:

خصصه لبلورة تصور متكامل لدراسة السرد العربي و استدعاء حدوده العامة المتصلة بالخطاب والنص ، منطلقا من " السرديات " كاختصاص يسعى إلى استنباته وبلورته بالاشتغال بالنص السردي العربي قديمه وحديثه . من " سرديات الخطاب" إلى " سرديات النص " ، يعرض سعيد يقطين في تأطيره لإجراء آخر يميّز بين السرديات الخاصة و السرديات العامة، فالسرديات الخاصة تتصل بالخطاب وتبحث فيه من جهة : النوع السردي ، أي ما تتميز به مكونات نوع عن نوع آخر ، وتاريخ السرد : وتنظر فيه في تحولات الخطاب السردي المعين، بينما ترتبط السرديات العامة بالنص من حيث أبعاده ودلالاته المتعددة .

انطلاقا من هذا التصور ، يقترح سعيد يقطين زاوية أخرى للنظر إلى مختلف العلاقات التي توافق مجال الاشتغال السردي والاختصاصات السردية التي يستدعيها واقع النص السردي العربي ، بحيث يكون تطوير الحدود النظرية والتطبيقية لمفهوم السرد ، ومعرفة أبعادها وخلفياتها استنادا إلى "مبدأ الملاءمة " ، وهذا ما سمح لسعيد يقطين بتوجيه وتوسيع دائرة السرد و السرديات و وضع أسس إجرائية قابلة للاختبار حسب مستويات ثلاثة :

ا. القصة : وتسندها الأفعال ، الفواعل : سرديات القصة .

(ب) الخطاب : وبموجبه يتم النظر إلى : الراوي ، الخطاب ، المروي له : سرديات الخطاب .

(ج) النص : ويتصل بالكاتب ، النص والقارئ : سرديات النص .

كما يثبت سعيد يقطين ضمن نفس الدائرة : النوع : سرديات الأنواع ، التاريخ : السرديات التاريخية.

2*أما الفصل الأول فجعله لرصد آراء القدماء العرب حول ما أسماه " النص" و" اللانص " في الثقافة العربية .

انطلاقا من هذه التحديدات ، تناول سعيد يقطين في الفصل الأول بالتحليل و الدراسة و التعليق والاستخلاص والتركيب آراء القدماء العرب في " النص " و" اللانص " و الكلام والقص و الفتوى الفقهية إلخ ... كما تناولت ذلك كتب البلاغة والنقد بإشاراتها الصريحة والضمنية . و لا شك أن القضايا التي يتناولها هذا الفصل،على المستوى النظري ، عمدت إلى إقامة الاستدلال على جملة من المنطلقات أهمها : التمييز بين النص واللانص نسبي ويتجسد بناء على أساس حيثيات وشروط تاريخية وثقافية محددة [10].

3*وكان الفصل الثاني فقد خصصه سعيد يقطين لما أسماه (السيرة الشعبية والبحث المحجوز) فبين الأسباب الكامنة وراء الاهتمام بها في منتصف هذا القرن مستندا إلى آراء العديد من الباحثين : ع . يونس ، ف . خورشيد ، نبيلة ابراهيم إلخ ... ، قبل أن ينتقل إلى فهم ماهية السيرة الشعبية ونوعيتها ، وكذا اختصاص ومنهج الدراسات التي تناولتها بالبحث والتصنيف ، محاولا تقديم تصور جديد لدراسة السرد العربي ينبني على أسس جديدة ومغايرة .

واضطلع الفصلان الأخيران بتوضيح معالم هذا التصور .

4*و في الفصل الثالث يعرض سعيد يقطين (تساؤلات حول الكلام العربي) لموقع السرد في الثقافة العربية انطلاقا من اسم الجنس الجامع الذي اهتم به العرب القدامى ، ووصفوا به مختلف الممارسات اللفظية وميّزوا أنواعها وخصائصها ، وهو مفهوم " الكلام " في البلاغة والنقد ، قبل أن يكشف عن أقسام الكلام العربي وأوصافه .و عليه فقد تقدم لنا اجتهادات مهمة يمكن استثمارها لتشكيل تصور متكامل للكلام العربي ، ولأجناسه وأنواعه ، وذلك انطلاقا من البحث فيه :

1*في ذاته . 2* في صفاته . 3*في علاقاته.

5*حاول إعادة صياغة هته الأسس في الفصل الرابع (الجنس والنص في الكلام العربي) من خلال محاولته إقامة تصور لدراسة الأجناس والأنواع والأنماط . كانت نقطة الانطلاق التمييز بين المبادئ والمقولات والتجليات . وجعل كلا منها متصلا بقسم من أقسام الكلام ، فربط المبادئ بالتبات ووصلناها بالجنس ، والمقولات بالتحول ، وربطناها بالنوع ، وجعل التجليات ترتبط بالتغير ، ووصلناها بالنمط .

وانطلاقا من صيغ الكلام ميز بين ثلاثة أجناس للكلام العربي هي : الخبر والحديث والشعر . وانصب اهتمامه على الخبر ، فنظر إليه من حيث أنواعه وأنماطه ، وحاول مَوْقَعَة السيرة إلى جانب الخبر والحكاية والقصة ، باعتبارها من الأنواع الخبرية أو السردية الأصلية .

وبعد استعادة تصوره السردي ، وبحسب المبادئ التي حددها لدراسة الكلام ، جعل

- "القصة " متصلة بالمبادئ لأنها مأوى الجنس .
- و "الخطاب "متصلا بالمقولات (النوع) .
- و "النص "مرتبطا بالتجليات (النمط) .

من هنا نستشف أن يقطين جسد تصوّره حول الجنس والنوع والنمط باعتبارها صيغا مركزية في تحديد الكلام العربي وأشكال إنتاجه للتحقيقات النصية .

6*و في أخر هته الدراسة أدرج يقطين اضافة سماها ب "السرد و السرديات (عود إلى البدء) أكد من خلالها أن السرديات النصية لا يمكن أن تكتمل أو تتكامل إلا بمعالجتها السرد من حيث هو قصة ، من خلال '' سرديات القصة '' ، والسرد من حيث هو خطاب ''سرديات الخطاب ''[11].

تُظهر هذه القضايا وغيرها ، إذن ، جدوى الاهتمام بدراسة السيرة الشعبية باعتماد وساطة نظرية تراعي خصوصية السرد العربي القديم وتقاطع إجراءاته التصنيفية مع التصور الذي يقترحه سعيد يقطين للسرديات ، تصور يقوم على :

ـــ سرديات القصة : لكونها تهتم بالمادة الحكائية المتصلة بالجنس .

ـــ سرديات الخطاب : وتهتم ب " السردية " التي تتميز بها مادة حكائية ما عن أخرى .

ـــ سرديات نصية : وتهتم بالنص السردي باعتباره بنية مجردة أو متحققا من خلال جنس أو نوع محدد.

الهوامش والمراجع

[1]- سعيد يقطين ، مقال بعنوان الكلام والخبر(مقدمة للسرد العربي)، سرديات سعيد يقطين ،2000-2012، http://www.saidyaktine.net

[2]- سليمان الحقيوي ، مقال بعنوان :سعيد يقطين: مستقبل كتابتنا في السرديات القديمة،موقع العربي،7 -7-2015، http://www.alaraby.co.uk/culture

[3]-المرجع نفسه.

[4]- سعيد يقطين ، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت ، الطبعة الأولى ، 1997، ص7.

[5]-جان ماري شيفير، ما الجنس الأدبي، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة 1997 :م، ص 125.

[6]- المرجع نفسه.

[7]-سعيد يقطين ، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) ، ص 8.

[8]-المرجع نفسه، ص8.

[9]- -المرجع نفسه ، ص9.

[10]-المرجع نفسه ، ص 77

[11]-بتصرف ، سعيد يقطين ، الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي)، ص 10- 11.